مالك سمارة *

زئيف جابوتنسكي: الصهيونية التنقيحية في ثلاث قصائد

تقديم

لزئيف جابوتنسكي (١٨٨٠-١٩٤٠)، الأبِ الروحي لليمين القومي الصهيوني ولـ«إسرائيل الثانية»، ٨ قصائد سياسية وحسب، تنضاف لها بضع قصائد أخرى متناثرة تكاد تكون منسية في مكتبة الأدب العبري الحديث. لكن ما كُتب، على قلّته، يكفي لنقرأ من خلاله المقولات الكبرى والمحطات الرئيسة في حياة مؤسس الحركة التنقيحيّة الصهيونيّة، التي ستتجاوز حدود اسمها بعد عقود لتصبح التيار الصهيونيّ المعياري لا «التصحيحي».

على ذلك، جاءت قصائد جابوتنسكي مترفّعة عن الشعريّة وأخيلتها، لا تقل فجاجة عن بيانه السياسي، وظهيرًا أدبيًّا/تربويًّا للخطاب الأيديولوجي الذي تبنّاه واستهدف فيه، تحديدًا، النشء العبري. وذاك ديدن القصائد الصهيونيّة إجمالًا في فترة «اليشوف»، بدءًا مما كتبه رائدها حاييم بياليك. لكن بينما أعلى هذا الأخير، ووراءه التيّار الصهيوني المركزي، مفردات القوة والبطولة إلى حد احتقار الضعف والهزيمة، لم يمانع جابوتنسكي الوقوف على أطلال الهزيمة، منقّبًا عن صور التضحية والفداء. لقد كتب عن سجن عكّا، حيث مكث بضع أشهر بعد اتّهامه من قبل سلطات الانتداب بالتورط في إشعال أحداث النبي موسى الدامية عام ١٩٢٠، التي قتل فيها يهود أكثر مما قتل فيها عرب؛ وكتب عن تل حاي، المستوطنة التي أقيمت في محيط إصبع الجليل وقتَ كان ضمن حدود الانتداب الفرنسي، قبل أن يهاجمها العرب المجاورون، غير المنظمين عسكريًّا، ويهزموا حاميتها المدرّبة، ويجبروا قاطنيها على الرحيل. هناك تحديدًا قُتل يوسف ترومبلدور، رفيق السلاح الذي شارك جابوتنسكي في تشكيل أول فرقة يهوديّة قتاليّة ضمن الجيش

* باحث متخصص في الدراسات الإسرائيلية.

البريطاني في فلسطين عام ١٩١٥، لتكون في ما بعد نواة العمل العسكري الصهيوني في البلاد.

لكن اسم يوسف ترومبلدور هذا سيصبح أيقونة «بيتار»، حركةِ الشبيبة الصهيونيّة التي أسسها جابوتنسكي فورَ انشقاقه عن المنظمة الصهيونيّة برئاسة حاييم وايزمان، مختطًّا لنفسه مساره الأيديولوجي التنقيحي. والاسم «بيتار» هو اختصار للأحرف الأولى من جملة «بريت يوسف ترومبلدور»، أي (عصبة يوسف ترومبلدور)، لكنّه يحمل أيضًا معنى مركّبًا إذ يحيل إلى قلعة بيتار التاريخيّة، التي لم يبقَ منها إلا بعض أطلال يسمّيها اليوم أهالي قرية بتير، جنوب غرب القدس، «خربةَ اليهود». مفردة «بيتار» تلك، والتي تتكرر بالمعنيين في قصيدته هذه وفي قصائد أخرى، لم تكن محض تناصٍّ عابر: أراد جابوتنسكي أن يقرن ما حصل في تل حاي، التي قتل ٦ من أفرادها ورحل الباقون بعد الهجوم، بما حصل قبل نحو ١٩٠٠ عام في بيتار - آخر القلاع اليهوديّة المقاتلة في التاريخ، والتي سقطت بعد حصار ثلاث سنوات ونصف ومذبحة دامية، وكانت إيذانًا بانتهاء الوجود اليهودي في فلسطين كوَحدة كيانيّة، وفقًا للرواية الصهيونية. لم يرد جابوتنسكي، من وراء رمزية بيتار، استحضار مفردات التضحية والفداء حتى آخر قطرة دم وحسب، بل التأكيد على أن ما انتهى عند بيتار، وقبلها يودفات ومسادة –أي الوجود اليهودي في فلسطين- سيُبعث مجددا عند إقامة بيتار جديدة.

وما استحضار «الحصون» و«القلاع» هنا إلا تمثّل رمزي لفكرة «الجدار الحديدي» التي تلخّص رؤية جابوتنسكي للصهيونيّة: إقامة نواة يهوديّة ثمّ تحصينها، قبل إقامة الدولة التي لا ينبغي لها أن تكون إلا على أرض إسرائيل الكاملة: الضفّتين، يتوسّطهما نهر الأردن، كما كتب في قصيدته. لكن على ما في المفهوم من عقائدية –أي أرض إسرائيل الكاملة- فإن مقاربته مع الزمان والوقائع، في الماضي وفي الحاضر، تجرّد ما في الصهيونيّة إجمالًا، ويمينها تحديدًا، من انتهازية براغماتيّة في التعاطي مع مسألة الأرض: لم يعد مفهوم «أرض إسرائيل الكاملة» يحيل إلى الضفتين اليوم، في وقت يتركّز فيه سجال المركز واليمين على أراضي الضفة الغربية. أما في زمن القصيدة (عام ١٩٢٩)، فقد كان السجال على أشدّه بين الصهيونية المركزية والتنقيحية حول أراضي شرق الأردن، بعد أن قسّم الانتداب البريطاني ضفتي النهر عام ١٩٢١، ومنع اليهود من البناء على الضفة الشرقية. في ظلّ ذلك الظرف التاريخي كتب جابوتنسكي: «فلتذهب يميني في مهبّ النسيان إن نسيت يسارَ النهر»؛ و«يسارُ النهر» هي الترجمة الحرفية لما ورد في النصّ الأصلي، ولعلّها تعني، بالنسبة إلى ابن هذه البلاد، الضفة الغربيّة لا الشرقية. لكن جابوتنسكي، في ذروة عقائديّته وتوطّنه، كان ينظر إلى فلسطين من أعلى الخارطة، بعينِ الغربيّ.

١- نشيد «بيتار»

«بيتار»[١]
من قاع الغبرة والعفونة
بالدم والعرَق
سينبت لنا عِرْق
شامخٌ وسخيّ وشديد
وبيتار الأسيرة
يودفات ومسادا[٢]
ستنهض بجلالة ومجد

مجد
اليهودي حتى في الفاقة أمير
عبدًا كنت أم متشرّدًا
لقد أنجبت ابن ملوك
متوّجًا بإكليل داوود
في الضوء أو في العتمة
تذكّر تاجك
تاج الأنفة والتحدّي

التحدّي
إزاء كلّ العقبات والمُلمّات
صعودًا وهبوطًا
في أجيج الثورة
احمل الشعلة لتضيء
لا تكترث
لأن الصمت ضِعة
لا ثمنَ للدم والروح
في سبيل المجد التائه

الموت أو احتلال الرابية
يودفات، مسادة، بيتار

٢- سجناء عكا

من دان[٣] حتى بئر السبع
من جلعاد[٤] إلى البحر
ليس ثمّة على ترابنا
ما لم يُفتدَ بالدم

دم عبري انهمل فأروى
السهل والجبل والوادي
لكن جيلًا بعد جيل
لم ينهمل دم
أطهرُ من دم فلّاحي تل حاي

بين إيلات وميتولا[٥]
مخبوء في قبر مهجور
دمُ الذي حرس حدود أرضنا
البطل الأبتر

سجناء نحن.. لكن قلوبنا
تيمم شمالا صوب تل حاي
لنا.. لنا.. ستكون لنا
درة جبل حرمون[٦]

٣- شرقيَّ النهر

لا يقوم هيكل إلا على ضلعه
ولا إنسيّ إلا على عموده الفقري
ونهر الأردن.. النهر المقدس
هو ضلع بلادي وعمودها الفقري

بلادي وإن انحسرت وصغرت
تظلّ لي من رأسها إلى أخمصها
من بحرها إلى صحرائها تتمدد
والنهر –نهر الأردن– في وسطها

ضفّتان للنهر:
هذه لنا.. وتلك أيضًا

هناك سيرتوي فيضًا ونعيما
أبناء العرب وأبناء المسيحيين وأبنائي
لكن لأن علَمي واحدٌ نقيّ
فسينقّي ضفّتي نهري

نذرت يدَيَّ لك يا وطني
كلتا يدَيّ للمخرز والدرع
فلتذهب يميني الخائنة في مهبّ النسيان
إن نسيت شرقَ الأردن

ضفّتان للنهر:
هذه لنا.. وتلك أيضًا

الهوامش

١ رابطة شبابيّة أسسها زئيف جابوتنسكي في يافا عام ١٩٢٣ وتوارثها اليمين المتطرّف منذ الحركة الصهيونية التنقيحية إلى «الليكود»، ومن منظمات «الأرجون»، و«الإتسل» و«الليحي» المتفرّعين عنها، إلى رابطة «بيتار» الرياضيّة التي تضم اليوم أندية عدّة، أبرزها «بيتار القدس» الذي يستند إلى قاعدة جماهيريّة عريضة هي الأكثر تطرّفًا وعنصريّة.

٢ ثلاثتها أسماء قلاع يهودية سقطت خلال الثورات ضد الدولة الرومانية: يودفات كانت أول قلعة يهودية تسقط في الجليل خلال فترة التمرّد اليهودي الأوّل عام ٦٧ ميلادي بعد حصار ٤٧ يومًا؛ مسادا كانت آخر قلاع اليهود خلال ذلك التمرّد، وسقطت عقب ذلك بنحو ست سنوات، بعد حصار استمرّ نحو شهرين أو ثلاثة، وبعدما آثر اليهود «السيكاريون» المتحصّنون فيها الانتحار بشكل جماعي وفق رواية المؤرخ اليهودي يوسيفوس فلافيوس؛ أما بيتار فسقطت إبّان التمرّد الثالث بقيادة شمعون بار كوخبا في القرن الثاني الميلادي، وتحديدًا عام ١٣٥، بعد حصار فرضه الإمبراطور الروماني هارديان لثلاث سنوات ونصف، ومعها انتهت آخر «الحروب اليهودية الرومانية».

٣ مستوطنة في إصبع الجليل.

٤ الخط الممتد على طول نهر الأردن.

٥ المطلة.

٦ جبل الشيخ.